

الصلات السلمية والعنيفة بين الشرق والغرب في نهاية العصر الوسيط

Peaceful and tough relations between the East and the West at the end of the middle Age

د. عادل النفاتي

باحث في التاريخ الثقافي المغربي والمتوسطي، وعضو بمخبر تاريخ اقتصاديات المتوسط ومجتمعاته، بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس. adel.nafeti@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/06/28

تاريخ القبول: 2020 /05/11

تاريخ الاستلام: 2020/05/01

الملخص:

يحللنا مفهوم الشرق والغرب على عالمين ثقافيين تشكلا منذ عهود حول ضفاف المتوسط والمجالات الممتدة من ورائها، معلنين مغايرة تامة في نظرة كلٍ منهما إلى الذات والآخر، ما ترتب عليه تأسيس علاقات متغيرة غير مستقرة، شهدت أطوارا مختلفة، بين انفتاح لا محدود في بعض الفترات ورغبة في الانطواء في فترات أخرى. وفي خضم ذلك، تبادلت مخيلات الشعوب إنتاج صور ذهنية مركبة، شكلت مزيجا معقدا من التمثيلات والتصورات، مُحيلة على تخوُّف كل ثقافة من فقدانها لمقوماتها، والنوبان في الثقافة المنافسة. لقد لجأت كل واحدة منهما في أوقات تراجعها إلى وضع أسوار رمزية ومتخيلة، وحواجز ذات طبيعة نفسية لأجل تمرير صور عدائية للآخر المخالف بغاية الحد من تمدد الثقافة المقابلة. ورغم اجتهدات المؤسسات الدينية والاجتماعية والأنظمة الحاكمة في دعم الأسوار المانعة، فإن مجهوداتها كانت دوما ما تنتهي بالفشل، فللمتوسط كلمته العليا في شد أزور التشابك الثقافي بين صفتيه.

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية، الحج، التجارة، الشرق، الغرب.

Abstract

The concept of East and West leads us to different cultural words or principles which revealed centuries ago around the mediterranean area and the regions nearby, announcing totally different opinions towards each other. Indeed, this resulted in establishing non – stable relationships that bounced between unlimited cooperation and openness in certain periods and a tendency to isolation and introversion in others periods. In this prospect, people's imagination developed a complex of thoughts and ideas which were basically based on the fear of losing one's identity and meeting into the other's culture and civilization. Each of these civilizations resorted, in times of weakness and decoy, to put imaginary barriers and rather psychological obstacles in order to show that the other is a real enemy so as to stop his cultural expansion.

The religious and social organizations in additions to the people in power did their best to maintain this cultural crash. However, all their efforts were doomed to failure as the mediterranean region had always its pace as a region of cultural exchange and tolerance.

Key words: Crusades, pilgrimage, Trade, East, West.

المقدمة

يحيينا مفهوم الشرق والغرب على عالمين ثقافيين تشكلا منذ عهود على ضفاف المتوسط والمجالات المحاذية لها، معنيين مغايرة تامة في نظرة كلٍ منهما إلى الذات والآخر. ما ترتب عليه تأسيس علاقات متغيرة غير مستقرة شهدت أطوارا مختلفة، بين انفتاح لا محدود في بعض الفترات ورغبة في الانطواء في فترات أخرى. وفي خضم ذلك، تبادلت مخيلات الشعوب إنتاج صور ذهنية مركبة، شكلت مزيجا معقدا من التمثيلات والتصورات، مُحيلة على تخوّف كل ثقافة من فقدانها لذاتيتها، والذوبان في الثقافة المنافسة. فلجأت كل واحدة منهما في أوقات تراجعها إلى وضع أسوار رمزية ومتخيلة، وحواجز ذات طبيعة نفسية لأجل تمرير صور عدائية للآخر المخالف بغاية الحدّ من تمدّد الثقافة المقابلة. ورغم اجتهادات المؤسسات الدينية والسياسية في دعم الأسوار الممانعة، فإن مجهوداتها كانت دوما ما تمنى بالفشل، فللمتوسط كلمته العليا في شدّ أزر التشابك الثقافي بين ضفتيه.

أمن بحر المتوسط على مدار قرون، صلات قويّة غير منقطعة بين شعوبه تشكلت عبر وسائط مختلفة، تراوحت بين الطابعين السلمي والعنيف. ولعل ما عرفته المنطقة فيما بين 1096-1291م من مواجهات دامية وسمت بالحروب الصليبية مثال لذلك اللقاء العنيف الذي سهّل معرفة الغرب بالشرق، وفرصة مناسبة للتلاقي الحضاري بين الطرفين، والإعداد لظهور نزعة قوية نحو المثاقفة واحتكاك حضاريّ غير مسبوق. لقد أثبتت تلك الوقائع قدرة الثقافات على تجاوز العوائق الرمزية والنفسية، وعلى خلخلة أجهزة الرقابة وكل أشكال الممانعة والانعزال. فللثقافة مكرها في اختراق الأسوار، وقدرة فائقة على التمدّد حتى في مجالات أعلنت مغايرتها وعدوانيتها.

عملنا ضمن ورقتنا البحث في ثلاث إشكاليّات متصلة بمسألة المثاقفة في المتوسط في سياق ما عرف بالحروب الصليبية، وهي: كيف تم تجاوز معيقات التواصل بين الشرق والغرب إلى حين اندلاع المواجهات الصليبية؟ وما هو دور المستوطنات المسيحية في بلاد الشام وفلسطين في تقريب الهوة وتمكين الغرب من الاطلاع على ثقافة الشرق؟ وفي الأخير ما هي انعكاسات ترجمة آثار ابن رشد وشروحه لأرسطو في وضع اللبنة الأولى للعقلانية الغربية؟

1 صعوبات الاتّصال بين الشرق والغرب ووسائله إلى حين اندلاع المواجهات الصليبية

عملت الصورة الذهنية المتبادلة والمتقاسمة بين الشرق والغرب خاصة في أوقات احتدام الصراعات الدينية بين الإسلام والمسيحية على تعطيل الصلات والحد من انسيابيتها بين ضفتي المتوسط، غير أن الثقافات لم تكن عاجزة عن استنباط وسائط أخرى قادرة على خرق حواجز المغايرة والاختلاف.

1.1 معيقات الاتّصال بين العالمين

ليس من الصعب على الباحث في المدونات الكلاسيكية على اختلاف أجناسها ولغاتها تبين حضور صور ذهنية مركبة ومنتجة حول الشرق والغرب، وأن يقف عند ذلك التباين والتضاد المقصودين في مدلولاتهما. فمن الواضح أنهما كانا مهووسين منذ القدم ببناء صور ثقافية متبادلة عن الذات وعن آخرها، ومن المؤكد أيضا أن معاني تلك الصور لم تكن بريئة، بل هي مشحونة بأحكام وتمثيلات مُغرقة في إظهار دونية الطرف المقابل. فهي أبعد ما تكون عن العفوية، ولا ترتسم في الذهن بطريقة تلقائية، وليست بمعزل عن كل تخطيط أو سابق تقدير، فهي ممزوجة بألوان من المواجهة والرغبة والتخيل¹. فكما أنتج العرب المسلمون صورا عن آخرهم في كل الأوقات، فقد فعل الغرب المسيحي بالمثل، ليلج زخم إنتاج الصور أوجهه في الفترة الوسيطة. فقد كانت حقبة حافلة بالصدامات والمواجهات العنيفة بين الجانبين، فكثرت فيها الحديث عن الذات وعن التاريخ

وعن الدين والهوية وطرق حمايتها، مثبتة صلابة عجيبة في الثبات والاسترسال².

وبالعودة على بعض من تلك النعوت والتسميات التي أطلقتها كل ثقافة عن آخرها، فإننا نتوقف عند أقدم التسميات التي أطلقها الإغريق والرومان قديما - عندما كانوا صناع التاريخ والمعرفة - وتم تداولها في المؤلفات الجغرافية والتاريخية الكلاسيكية على السكان الأفارقة. فقد وسم الإغريق سكان شمال إفريقيا "باللوبيين" كشعوب تعيش مرحلة ما دون الأدمية، وافتقاد مجالاتها لمقومات نشوء الحضارات وتكون المدن على غرار ما كان موجودا في حواضر العالم الإغريقي. وخصّ الرومان سكان شمال إفريقيا بدورهم بنعت "البربر"، ووسموا منطقتهم الممتدة بين مصر والصحراء الإفريقية إلى حدود المتوسط شمالا والمحيط الأطلسي غربا ببلاد البربر la Barbarie للإشارة إلى موطن استقرار شعوب بدوية تعيش على الترحال تشبه في نمط عيشها عالم الحيوان³. ولقد استمرت أوروبا في كل العصور في إنتاج صور مشابهة عن بقية الشعوب الأخرى التي تختلف معها في نظم الحياة وخاصة منها تلك التي كانت تناصبها العداء. ففي سياقات جديدة مرتبطة لتحولات الفترة الأوروبية الوسيطة أطلقت الكنيسة الكاثوليكية شتى النعوت التحقيرية على العرب المسلمين كالسارازين⁴ les sarrasins والكفار les infidels. ولم تسلم الكنيسة الشرقية الخاضعة لبيزنطا بدورها من تلك النعوت التحقيرية على إثر الانقسام الكبير الذي جد بين الكنيستين الشرقية والغربية في منتصف القرن الحادي عشر، حيث وسموا بالهرطقة les Hérétiques.

وفي مقابل ذلك فإن العرب المسلمين وأثناء صعودهم على مسرح الأحداث الدولية وأخذهم في توجيه مسارات التاريخ في منطقة الشرق، قاموا برسم معالم صورهم الذهنية عن ذواتهم وعن آخرهم، وكأنهم كانوا يثأرون لأنفسهم ولتاريخهم بعد أن هُمشوا طويلا. فقد أسهمت المدونات العربية منذ القرن السابع ميلادي في اختزال صور الأمم التي تخالفها في الدين والأنساق الثقافية في كتل صماء. فصنفت العالم إلى دارين: "دار الإسلام" حيث صهرت القيم الإسلامية جوهر الجماعة المؤمنة بها، وصاغت رؤيتها لنفسها ولغيرها، وفيه تتراسل منظومة من القيم الروحية والأخلاقية والعقائدية التي انبثقت عن القرآن وعززت بفهم المسلمين لطبيعة الرسالة التي يتضمنها⁵. و"دار الحرب" التي احتضنت أصناف عديدة من الناس. فمنهم من تم وسمهم بالوثنيين في إشارة إلى الشعوب التي تؤمن بالطبيعة الواحدة، ومنها من وصفوا بالمجوس⁶ في إشارة إلى الفرس. وواصلوا إطلاق لفظة "الروم" على جيرانهم في بيزنطا ككتائيين رفضوا الانخراط تحت راية الدولة الإسلامية الناشئة. ولم تتوقف السرديات العربية عن إنتاج مصطلحات جديدة تتوافق مع سياقاتها، فقد وضع المسلمون خلال المواجهات الصليبية مصطلحا جديدا أطلق على حملة الصليب بـ "الفرنجة" أو "الإفرنج les Francs" في إشارة إلى شعوب مملكة فرنسا وغرب أوروبا في ذلك الحين، وهم أكثر الأوروبيين حماسة لغزو الشرق.

خلفت الصور الذهنية المتبادلة بين الطرفين المفعمة بالكراهية ميلا قويا لانعزال غير مسبوق في المتوسط عن الطرف المقابل وتشديد جدار ثقافي عازل، ونوعا من العزوف عن اللقاء والتواصل المباشر بينهما خصوصا لدى المسلمين. فقد كان يُكره على المسلم زيارة "دار الكفر" التي وقع اختزالها في أوروبا إبان الحروب الصليبية، إلا للضرورة القصوى كإيفاد السفارات والوفود الدبلوماسية بقصد عقد معاهدات صلح أو لتحرير أسرى المسلمين، وفيما عدا ذلك فإن المسلم لا يتجه إلى "دار الحرب" إلا حاملا سيفه بغاية "الجهاد". كما قيّدت الكنيسة تحركات أتباعها إلى العالم الإسلامي وحسرتة إلا للضرورة كإتيان طقوس الحج أو للتجارة⁷. وعلى الرغم من تلك العوائق الثقافية المتبادلة بين العالمين، فإن وفود الحجيج الوافدة من أوروبا والمبادلات التجارية قد كسرت ذلك الطوق وخلقت طرقا ومسارب رابطة بين شمال المتوسط وجنوبه، وبين شرقه وغربه.

2.1 من الحج السلمي إلى الحج المسلح

أضحت القدس منذ الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية في الدولة الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين Constantin (272-337 م) وبناء كنيسة القيامة سنة 328 م قبلة الحجاج المسيحيين. فهي المكان الأفضل في وجدان المسيحيين للتطهر وللتوبة وطلب المغفرة والشفاء، ولاقتفاء خطوات المسيح وحواريه. ومن اللافت أن معاني كلمة الحج قد شهدت تطوراً استثنائياً في المدلول، تزامناً مع التحولات الدينية بأوروبا. فقد كانت كلمة peregrinus في معناها الأول تدل على الانتجاع والتشرد، ثم اتخذت معنى دينياً وروحياً خالصاً عند انتشار المسيحية في المجتمعات الأوروبية، لتحيل على الشخص الذي اختار الانقطاع عن مجتمعه والسير نحو المشرق لزيارة الأماكن المقدسة المشبعة بالروحانيات، عندما أضحي الحج إلى ما وراء البحار طريقاً مختصرة للخلاص الدنيوي والآخروي⁸.

لم تكن شعيرة الحج إلى حدود القرن الثامن ذات أهمية قصوى في نظر المسيحيين، ولم تكن محل إجماع واتفاق بين آباء الكنيسة ورجال الدين، بدعوى أن إتيانها قد يفتح الباب لعودة الطقوس الوثنية المتمثلة في زيارة القبور والمعابد⁹. ثم ما لبثت أن نشطت فكرة الحج والغفران وزيارة الشرق في أذهان مسيحيي أوروبا، عند إعلان خلفاء المسلمين قبولهم للصليبية الكارولنجية على مسيحيي الشرق والسماح لهم بتشديد دور الضيافة في مدن الشرق¹⁰. ومن طيب القول أن السفن العربية والإسلامية كانت تساهم إلى حدود القرن العاشر ميلادي في نقل الحجاج المسيحيين من موانئ إيطاليا. وفي القرون التالية كانت وفود الحجاج المسيحية تلتقي مع قوافل الحجاج المسلمين المغاربة والأندلسيين واليهود في الموانئ الإيطالية، فتفتح عن ذلك تشكل مشاهد بدبعة من السلم والتعايش بين الديانات الثلاث، فتقضي الجماعات مع بعضها مدة من الزمن في احترام لنواميس الجوار قبل أن يتفرق كل إلى وجهتها¹¹.

تتجه وفود الحجاج المسيحيين نحو القسطنطينية بعد إبرام عقود نقل مع شركات ملاحية مختصة، وعادة ما ترافق الحجاج في رحلتهم البحرية مجموعة من الحرس والجنود لتأمين سلامتهم، وفي أغلب الحالات يحتمي ركب من التجار بركب الحجاج¹². وعند بلوغ القسطنطينية تصبح الرحلة برية عبر عبور منطقة الأناضول ثم بلاد الشام نحو فلسطين، عندها يتفرق الموكب إلى مجموعات يسير أكثرهم حفاة على الأقدام، ويمتطي أغنيائهم والعجز الحمير، في مسالك تحدها الكنيسة وتسهر على تأمينها، تحت إمرة أساقفة ونبلاء إقطاعيين. وكانت القاعدة العامة لمناسك الحج المسيحي هو السير نحو الأماكن المقدسة دون أسلحة، ولا يسمح لهم إلا باستعمال عصي للدفاع عن أنفسهم ضد الوحوش الضارية. ولقد استمر العمل بتلك القواعد إلى حين اندلاع الحروب الصليبية، إذ اتخذت الحملة الأولى صبغة الحج المسلح كما وسمها البابا أوربان II الذي اتجه نحو عسكرة الحج، ومنح الحاج المسيحي امتياز حمل السلاح.

كان أغلب الحجاج في القرون الأولى للمسيحية ينحدرون من طبقات اجتماعية معدمة ثم انخرطت شيئاً فشيئاً فيه فئات أخرى، مع سيطرة ذكورية ومشاركة نسوية محدودة تقتصر على المرافقات لأزواجهن¹³. وبتزايد أعداد الحجاج، تكونت عدة جمعيات منظمة لعمليات الحج وتأمين دور الإقامة بالقدس. فكانت دوراً بسيطة في شكل أكواخ مفروشة بفرش وضيعة، إلى حين حصول جماعات إيطالية من البندقية وجنوة على امتياز إقامة دور ضيافة، لعل من أهمها "جماعة فرسان بيت المقدس"¹⁴ التي نشطت في مجال الإشراف على عمليات إيواء الحجاج وحمايتهم وتقديم الخدمات الصحية لهم. وسرعان ما تعاطف دور تلك الهيئة المسنودة من قبل الكنيسة ونشرت فروعها في جل عواصم أوروبا وموانئها، وفي الممالك المسيحية بالشرق. فكانت تقوم باستبدال العملة وجمع الأموال وتسهيل مواكب السفر وتنظيمها، وبناء بيوت الضيافة وإعدادها

لقاصديها. وعموما فقد شهد نسق الحج نحو المشرق نسقا تصاعديا منذ القرن العاشر ميلادي حتى نهاية الفترة الوسيطة ولم يتأثر إلا في فترات محدودة عند احتدام المواجهات بين الطرفين المتنازعين. لقد كانت تلك الرحلة الموسمية السنوية للحجاج المسيحيين فرصة مواتية للالتقاء بالعرب والإطلاع على منجزاتهم الحضارية.

3.1 التجار الإيطاليون سفراء الغرب في الشرق

عدت منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ القدم مركز التجارة الدولية، حيث شغل فيها المتوسط الطريق الرئيسي الأسرع للنقل والتجارة والتبادل الثقافي بين شعوبه التي سكنت ضفافه، وبقية الشعوب الأخرى المجاورة. كما وصل مدى التجارة المتوسطية - رغم عتاقة الوسائل المستخدمة - إلى مناطق أخرى خلف العالم المتوسطي، عبر طرق برية وبحرية فرعية امتدت إلى السواحل الغربية لإفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء ووسط أوروبا وشمالها ووسط آسيا وشمالها.

شهد التاريخ التجاري للمتوسط تقلبات عديدة، حيث كانت المبادلات التجارية بين أقاليمه تخضع في كل مرة لسيطرة إحدى قواه المحلية: على غرار الفنيقيين والإغريق مروراً بالرومان والبيزنطيين والعرب والإيطاليين ثم الفرنسيين وجنسيات أوروبية أخرى، قبل أن تتجه الأنظار نحو المحيط الأطلسي على إثر الاكتشافات الجغرافية الكبرى. وبالعودة إلى نهاية الفترة القديمة التي تراكمت مع سقوط روما سنة 476 م، انتقل مركز التجارة المتوسطية في مرحلة أولى من الحوض الغربي للمتوسط نحو شرقه، إلى القسطنطينية حاضرة حكم البيزنطيين. حيث تمكنت المدينة من الاستفادة من موقعها الجغرافي الممتاز ما جعل منها سوقاً كبرى يلتقي فيه التجار من كل البلدان، وتتدفق إليها البضائع من كل مكان. ثم انطلقت مرحلة السيطرة العربية الإسلامية على تجارة المتوسط في القرنين الثامن والتاسع عند بلوغ العرب والمسلمين شواطئ الشرق. عندها أصبح المتوسط بحيرة عربية مفتوحة أمام حركة التجارة الدولية، مستفيدين من امتداد مجالات دولتهم التي كانت تغطي مساحات ممتدة في كل من آسيا إلى حدود سمرقند ولاهور في بلاد الهند، وبلاد التركمنستان في وسط آسيا، وفي إفريقيا على كامل شمال إفريقيا إلى حدود المحيط الأطلسي غرباً، وعلى أوروبا في إسبانيا من جهة الغرب وشواطئ البحر الأسود وبحر قزوين من جهة الشرق، ما فتح ممرات تجارية نحو جنوب روسيا ووسطها ونحو شرق أوروبا. ولقد استوجب النشاط التجاري العربي صك عملة محلية تمثلت في الدينار الذهبي والدرهم الفضي تم تداولها في أسواق المتوسط ونافساً "النوميسما" البيزنطية في المبادلات الدولية. كما لم تقتصر مبادلات المسلمين مع الأوروبيين على منطقة شرق المتوسط وحسب، بل تكونت حركة تجارية نشيطة بين المدن المغاربية والأندلسية مع الموانئ الإيطالية، وبرزت في ذلك الحين كل من فاس وتلمسان وتونس والمهدية وقرطبة وطليطلة وبلنسية وغرناطة، التي كانت من أغنى مدن أوروبا في ظل الحكم الأموي، ومركزاً اقتصادياً واسع الشهرة، ومقصد التجار الأوروبيين من كل جهة.

استمرت سيطرة العرب على تجارة بحر المتوسط حتى دخول النورماندين إلى إيطاليا في القرن الحادي عشر، ونشوب الحرب الصليبية الأولى سنة 1096. وبهذه الحوادث الطارئة تأثر مجرى التجارة الدولية في المتوسط تأثيراً كبيراً. فقد كان علامة على استعادة الإيطاليين السيطرة على تجارة المتوسط، حيث امتدت مبادلاتهم على الموانئ العربية في كل من بلاد الشام ومصر، واحتكروا التجارة مع بيزنطا. فنشطت موانئ البندقية وجنوة وناپولي وبيزا وباليرمو في نقل أعداد كبرى من المتطوعين المسيحيين للمشاركة في الحملات الصليبية على المشرق. ورغم أن الاتصال المباشر بين الشرق والغرب قد بدأ عن طريق الحرب، فإنه كان مقدراً له أن يخضع لطريق السلام في مجالي التجارة والثقافة.

تكفل الإيطاليون الذين اختصوا بربط الصلات بين أسواق الشرق والغرب بنقل كميات ضخمة من المواد الاستهلاكية، فكانت قائمة المواد المنقولة من السواحل الشامية والمصرية عديدة ومختلفة المصادر ومنها نجد: الفلفل والبهار والزنجبيل وجوز الطيب والمسك والعنبر والكافور وخشب الصندل والقرنفل، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة، كاللؤلؤ والفيروز والعقيق الأحمر والعقيق اليماني والمرجان. والصمغ العربي « اللبان » والورق والنيلة والحريز الصيني والحديد والنحاس والرصاص والذهب والعاج. وقد كان للأيوبيين ومن بعدهم المماليك دور مهم في ازدهار تلك المبادلات من خلال منحهم امتياز بناء فنادق تكون تحت إمرة قنصل أو ممثل لتلك الدولة يرعى مصالحها ومصالح رعاياها. وكان تجار تلك الدول ينزلون في فنادقهم الخاصة بهم، كي يحافظوا على تجارتهم وسلعهم، وينتظرون ورود سفن الشرق الأقصى لشراء ما يحتاجون لنقله إلى بلادهم. وكانوا يتمتعون في إقاماتهم بامتيازات خاصة ويعيشون أقرب إلى حياتهم في بلادهم¹⁵. وقد ساعد ازدهار التجارة البينية، وكثافة الأرباح التي يجنيها الطرفان على كسر حدة التوتر والعداء والجنوح إلى المسالمة للمحافظة على تلك العلاقات التجارية حرصاً على ديمومة الأرباح.

إن تردد الإيطاليين على الموانئ العربية قد كَوّن لهم فكرة عن حضارة الشرق التي كانت مزدهرة وقتئذ. وكان لاحتكاكهم بالعرب أثر بالغ في انتشار اللغة العربية بين التجار الغربيين، ومن خلالها نشر الثقافة العربية الإسلامية في أصقاع أوروبا. دون أن ننسى دور تجارة الرقيق في الأسواق العربية والأوروبية، حيث ساهم اختلاط العبيد بالعناصر المحلية على الضفتين، في نشر ما تعلموه في مجتمعاتهم قبل أسرهم.

2 الحروب الصليبية أو "الحج المسلح" وتداعياتها

فرضت السياقات المتوسطة الجديدة للنصف الثاني من القرن الحادي عشر ظروفًا جديدة أملت على الغربيين توظيف الحج المسيحي لأجل خدمة مصالح الكنيسة الكاثوليكية وطموحات حكام غرب أوروبا في التوسع في شرق المتوسط الغني بتجارته.

1.2 ماهية الحروب الصليبية وسياقاتها

الحروب الصليبية هي "مغامرة استيطانية متعصبة" وفق توصيف الباحث قاسم عبده قاسم¹⁶ على اعتبار أن السبب المباشر لتلك الحملات هو الاستيطان وليس لأجل نشر المسيحية الكاثوليكية بالقوة، أو حماية للمقدسات ونصرة لمسيحي الشرق كما زعم رجال الكنيسة في ذلك الحين وكما شاع تمثله لاحقاً¹⁷. ولكن في البداية دعنا نتوقف عند مدلولات تسمية تلك المواجهات العنيفة وبداية استخدام توصيف "الصليبية". لقد وسمها الكتاب العرب المعاصرون لتلك المواجهة المفاجئة على أرضهم بـ "حرب الفرنجة" - ما يوحي بمعرفتهم وتفريقهم بين أهم الأجناس البشرية المكونة لأوروبا¹⁸ - وفي المقابل فقد نوعت المصادر الغربية من توصيفاتها، ففي بداية الحملات كان المشاركون فيها يُوصفون بـ "الحجاج" *preregrini* ثم استخدموا كلمة حملة *expeditio* وأيضاً "حملة الصليب" *expeditio curcis* و "الحرب المقدسة" *bellum sacrum*. ومن اللافت أن استخدام عبارة "الحرب الصليبية" في المدونات الأوروبية لم يبدأ إلا بصفة متأخرة أي في حدود القرن الثامن عشر من قبل المؤرخين الأنغليز والألمان¹⁹. ورغم انتهاء تلك الحملات العسكرية في نهاية القرن الثالث عشر، إلا أن صداها ظل حاضراً في أدبيات الأوروبيين وفي فنونهم وأشعارهم ووجدانهم، تخليداً لبطولات الفروسية الأوروبية القروسطية، مستبعبدين الطابع العنيف الذي أظهره المحاربون اللاتينيون ضد المشاركة.

حمل القرن الحادي عشر في المتوسط جملة من التحولات كانت في عمومها لصالح الكنيسة الغربية، وسببا مباشرا لاندلاع المواجهات بين الشرق والغرب ولتعميق الشروخ بينهما. ففي ذلك الحين انتقلت الكنيسة الكاثوليكية من طابعها السلمي الذي بشر به اليسوع في بداية دعوته إلى العنف المسلح وإعلان الحرب ضد أعدائها من خارج أوروبا. فلم تعد بذلك المسيحية ديانة عبادة وتبتل، بل بدت غير ممانعة في تبني فكرة "الحرب العادلة" أو "الحرب المقدسة"²⁰، والتي سرعان ما انتقلت إلى طابعها الميداني. لقد عكست المواجهات الصليبية التحول النوعي في فكر زعماء الكنيسة وبخاصة في تكتيكات البابا قريقرور السابع²¹ Gregory VII وموقفه من الحرب. فقد استخدم في إطار تبشيره بالحروب الدينية ولأول مرة عبارة "جيش المسيح" في معناها الديني في عدة مراسلات، ومنها ما كتبه إلى الإمبراطور هنري الرابع (Henri IV) (1050 - 1106) سنة 1074 يخبره باستعداده للسير إلى بيزنطا لتقديم المساندة للكنيسة الشرقية بعد هزيمتهم أمام المسلمين في معركة مانزكرت Manzikert سنة 1071، مشدداً على عدالة القضية التي كان يدافع عنها. وهو ذات الشعار الذي رفعه البابا أوربان الثاني Urbain II (1088 - 1099) في كليرون سنة 1095، حيث تحدث عن قتل المسلمين للحجاج النصارى واعتداءهم على مقدسات المسيحيين في الشرق، داعياً بصفة علنية لتجهيز جيش كبير لغزو الشرق²².

ففي سياق اتسم بنضج الفكر الصليبي عند الغرب اللاتيني، كانت الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الشرقية تمران بأزمة حادة، بدأت نذرها منذ سنة 1025م، تاريخ وفاة الإمبراطور بازيل الثاني Basil II. وبلغت الأزمة حدتها على إثر هزيمة البيزنطيين ضد السلاجقة الأتراك وأسره إمبراطورهم رومانوس ديوجنيس Romain IV Diogène (1030 - 1072) في معركة مانزكرت، فوجد البابا أوربان الثاني في تلك الهزيمة خير فرصة لتنفيذ أهدافه التوسعية في الشرق. وفي الجهة المقابلة من المتوسط، عرفت المركزيات الإسلامية فترة حرجة من الضعف والهوان، فالعباسيون لم يعودوا قادرين على تسيير دوايب دولتهم وحمايتها من أطماع الفاطميين دون الاحتماء بالسلاجقة الأتراك. حينها انقسم ولاء المسلمين بين الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر والعباسيين السنة في بغداد، وانقسمت بلاد الشام إلى إمارات صغرى متنافسة ومشتتة بين الولاء للفاطميين وللسلاجقة.

ومن خلال ما تقدم فإن الحروب الصليبية لم تكن حروبا دينية في الأساس رغم ما حملته التسمية من إيهاءات، بل هي نتاج تفاعل بين أطماع الكنيسة الغربية والفرسان الإقطاعيين في مناخ اجتماعي وفكري تميز بشيوع الإيمان المطلق بالغيبات والأساطير والخرافات والمعجزات. كما بدا الخلاص الديني والأخروي لغالبية الأتقان الذين مثلوا الغالبية القصوى للمجتمعات الأوروبية رهن مشاركتهم في حروب الكنيسة والاستجابة لدعوات البابا. أما على المستوى الاقتصادي فإن حال أوروبا اللاتينية قد أخذ في التغير، إذ شهدت المنطقة انتعاشة اقتصادية بفضل السلم الاجتماعي وظهور استخدام تقنيات جديدة، واستحثاث في استصلاح الأراضي وتراجع مساحات الغابات والمستنقعات. كما بدت بوادر الازدهار والثراء في المدن الإيطالية المستفيدة من متانة علاقاتها التجارية مع بيزنطا والعالم الإسلامي، وتولدت لديها طموحات باستعاضة دور المسلمين في التجارة المتوسطية والسيطرة على مصادرها. ففي ذلك السياق بدأت أوروبا ترى أن إمكانياتها قد تتجاوز مجالها الجغرافي الضيق، وأن التمدد في المتوسط ممكن، ليس فقط لغايات دفاعية وإنما تدشيناً لمرحلة جديدة في تاريخ التوسع والاحتلال²³.

2.2 الممالك الإفرنجية ببلاد الشام ملتقى الشرق بالغرب

كان من نتائج الانتصارات الصليبية الأولى في مواجهة المسلمين تكون أربعة إمارات مسيحية كاثوليكية متفرقة ببلاد الشام وفلسطين وهي: إمارة الرها²⁴ وإنطاكيا²⁵ وطرابلس²⁶ ومملكة القدس²⁷. ظلت جميعها متشرذمة إلى حين سقوطها، ولم

يتيسر لها التّوحد في إطار مملكة واحدة بسبب بعد المسافات بينها وتشتهها داخل محيط عربي إسلامي ومجموعات عرقية أخرى أصيلة المنطقة²⁸. وبعد مرور مضاعفات المرحلة الصدامية الأولى بين المسيحيين الغربيين والوافدين والسكان الأصليين، شهدت خلالها المنطقة ارتكاب أحداث عنف فضيحة ضد المسلمين والمجموعات البشرية المحلية تم تخليد وقائعها في نصوص المؤلفات العربية والغربية المعاصرة لها²⁹، تشكلت علاقات من التعايش السلمي بين الطرفين، بعد أن تولدت فتاعة أن المواجهات الصدامية لا يمكن لها أن تستمر إلى ما لا نهاية، وأنه من صالح كليهما الدخول في علاقة حوار وتعاون. عندها التفت المسيحيون اللاتينيون - بوصفهم سادة الممالك المسيحية الناشئة - إلى وضع جملة من الهياكل والتنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتسيير أمور سكانها. فكانت عبارة عن مزيج من الموروث الإداري الشرقي المحلي والتنظيم الغربي الوافد، استجابة لحاجيات فسيفساء بشرية متنوعة ضمت : النبلاء والفرسان والعامة من الصليبيين والمسيحيين الشرقيين والتجار الإيطاليين والمسلمين والأقنان، الذين تم استقدامهم في إطار خدمة الأرض ضمن أطر النظم الاقتصادية القروسطية³⁰.

ففي الظرفية الجديدة أضحى التعامل بين الطرف المحلي والأطراف الوافدة ممكنا خاصة في فترات الهدنة أو في المجالات البعيدة عن ساحات المعارك. لقد فرضت المهادنة بين الطرفين واقعا جديدا وصفه الرحالة الأندلسي ابن جبير³¹ بإسهاب في رحلته إلى الشرق، حيث تحدث لدى مروره بدمشق سنة 1184م عن علاقات سادها التسامح والاعتدال بين المسلمين والمسيحيين. فقد عاين الكاتب تشكل علاقات إنسانية واجتماعية وتجارية بين الطرفين. ففي الجانب الإنساني نقل الرحالة العربي مشاهداته لإحسان طيف من الفرنجة للمتصوفة والزهاد المنقطعين عن الدنيا والمقيمين في الجبال بقوله : « إنّ النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون : « هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم »³². وفي الجانب التجاري، فقد وصف الكاتب استمرار تنقل التجار بين مصر ودمشق، وتواصل تسيير القوافل التجارية بين دمشق وعكا رغم خضوعها إلى السيطرة الكاثوليكية. فكان التجار الأوروبيون يذهبون إلى دمشق بقوافلهم وسلعهم دون أن يعترضهم أحد، وكان المسلمون يؤدّون ضريبة للإفرنج على الأشخاص والسلع عندما يدخلون بلادهم. وبالمقابل فإنّ تجار الفرنج كانوا يؤدّون للمسلمين ضريبة مماثلة على الأفراد والسلع التجارية عندما يدخلون إلى بلاد المسلمين، وهذا يعني المعاملة بالمثل³³. ويذكر ابن جبير أنّ الطرق والمسالك كانت آمنة، فالأمن والأمان كان منتشرا في كلّ الدروب والطرق في كلا الجانبين، و« الاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب. »³⁴.

احتضنت مدينة عكا التجارية الساحلية في بلاد الشام مشاهد إنسانية شتى عكست سلمية اللقاء بين المسلمين والمسيحيين الغربيين وقدرتهم على تجاوز المباينة الدينية. لقد شبه ابن جبير عكا بمدينة القسطنطينية، لأنّها كانت مدينة عظيمة ومكتظة بالسكان، وملتقى لتجار المسلمين والفرنجة من جميع البلدان والأقطار شرقا وغربا. فعند وصول القوافل القادمة من دمشق إلى عكا، كان التجار والمسافرون يتجهون إلى « الديوان »، وهو خان معدّ لنزول القافلة. ويجلس أمام هذا الخان كتّاب الديوان على مصاطب مفروشة، ويكتب هؤلاء بالعربية ويتكلمون بها، ثم يقوم التجار بإنزال رحالهم فيه. أمّا الرّواحل الخاصّة بالمسافرين الذين لا سلع لديهم، فيقوم الكتّاب المخصّصون في هذا الديوان بتفتيشها خوفاً من وجود سلعة مخبأة فيها، وبعد هذه العملية يطلق سراح المسافرين³⁵. وكان كلّ ذلك يتمّ حسب وصف ابن جبير : « برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل »³⁶. ولعل أعظم مشهد يعكس سياسة الاعتدال والتسامح الذي شاهده ابن جبير في المدينة، اشتراك المسلمين والنصارى في نفس المسجد المقام على عين ماء شرقي مدينة عكا تسمّى « عين البقر ». إذ كان للمسلمين محراب في هذا المسجد، وبعد أن احتلّه الإفرنج أقاموا لهم محرابا إلى الشرق من محراب المسلمين، وبذا أصبح المسلمون والنصارى يؤدّون طقوسهم الدينية في

المكان المخصص لهم³⁷، « فالمسلم والنصراني يجتمعان فيه يستقبل هذا مصّلاه وهذا مصّلاه، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ. »³⁸.

3 الشرق والغرب ما بعد الحروب الصليبية

وضعت المواجهات الصليبية أوزارها سنة 1291م وانتهت بفقدان المسيحيين الكاثوليك مدينة عكا آخر مستوطنة لهم في بلاد الشام وفلسطين، وأعادوا تموقعهم وانتشارهم في جزر المتوسط. ثم سرعان ما انكشفت النتائج الحضارية لذلك اللقاء العنيف ومخرجات التفاعل بين الشرق والغرب.

1.3 أوروبا ما بعد الحروب الصليبية والسير على هدى عقلانية ابن رشد

إن اندحار الغرب اللاتيني في المشرق العربي ومحاصرة الظاهرة الصليبية في بلاد الإسلام قد أملى على المسيحيين الأوروبيين الدخول في صليبية من نوع ثان على حدّ تعبير الباحث محمد نور الدين أفابيه، بالدخول في عملية نقل واسعة للعلوم والفلسفة العربية والإسلامية واقتباس أسباب الرقي الحضاري العربي الإسلامي³⁹. فقد مكنت المواجهات الدامية من إعادة اكتشاف الغرب للشرق وأمكنته من الاطلاع على التراث الحضاري الثري للعرب والمسلمين، وإبداعاتهم العلمية والفكرية والفنية بشكل أعمق. فقد أثار المخزون التراثي للشرق الاندهاش في نفوس الغربيين وجعلهم يقبلون على النهل منه تزامنا مع ميلاد تيار إصلاحيّ داخل الكنيسة الكاثوليكية يدعو إلى تطوير معارف رجال الدين المسيحيين وأفكارهم. ولقد تدعّم هذا التيار لاحقا عند بروز طبقة البرجوازية التجارية الباحثة عن تقليص فاعلية رجال الدين في تسيير الشأن العام وإعطاء نفس جديد للعلمنة الأوروبية.

كانت مجالات الاقتباس الأوروبي من التراث العربي الإسلامي شاملة لم تقتصر على ميدان واحد، ومنها نجد: الطب والصيدلة والرياضيات والجغرافيا والأدب والتاريخ، ولكن ستوقف بأكثر تفصيل عند حقل الفلسفة على اعتبار الدور الريادي للفيلسوف الأندلسي ابن رشد⁴⁰ في تحفيز الفكر العقلاني لدى الغرب المسيحي والأدوار الريادية التي لعبها في بناء النهضة الأوروبية في القرون التالية عندما أضحت العقلانية⁴¹ المرجعية الرئيسية في تنظيم أشكال الانتظام الاجتماعي والاقتصادي والفكري لدى الغرب.

نبح الانشغال الأوروبي بفكر ابن رشد ومؤلفاته من تميزه اللافت في شرح فكر الفيلسوف الأثيني أرسطو طاليس الذي عُرف في الأوساط العربية باسم المعلم الأول لعلم المنطق. كان أرسطو شبه مجهول في الأوساط العالمية الأوروبية بعكس أفلاطون، إذ لم تترجم له إلا بعض المؤلفات المحدودة في المنطقيات من قبل القنصل الروماني بويسوس Boece المتوفى في بداية القرن السادس ميلادي. ولما بدأ المترجمون بنقل شروح ابن رشد على أرسطو إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر انقلبت الآية وأصبح كلٌّ من ابن رشد وأرسطو محور الدراسات الفلسفية والعلمية الأوروبية طيلة قرون.

نجح الخطاب الفلسفي الرشدي - نسبة إلى ابن رشد حامل لواء العقلانية في القرون الوسطى - بمضامينه الإنسانية والعالمية في التوغل خلف التحصينات الأوروبية القروسطية ومن ولوج قاعات التدريس في كلية الآداب بجامعة باريس منذ بداية القرن الثالث عشر الأوروبية، وأضحى قبله العلماء سواء أكانوا من علماء اللاهوت أم من الفلاسفة. لقد كانت أعمال ابن رشد فعّالة في إرباك الفكر اللاهوتي المسيحي وفي نشأة الوعي الفلسفي الأوروبي⁴²، وإحداث ثورة فكرية منقطعة النظير ما نتج عنه

انقسامات في الأوساط العلمية الأوروبية. فقد انقسم الفلاسفة واللاهوتيون الى قسمين: قسم أول ضم أنصار فكر ابن رشد الذين عرفوا باسم الرشديين اللاتينيين وعلى رأسهم سيجر دي بربان⁴³ Siger de Brabant. وقسم ثانٍ انخرط فيه خصوم ابن رشد وعلى رأسهم القديس توما الأكويني⁴⁴ Thomas d'Aquin. وكان الخلاف بين الفريقين يدور حول عدد من القضايا الدينية والفلسفية مثل أزلية العالم ووحدة العقل الهولاني والعناية الإلهية وخلق العالم من العدم وحرية الإرادة وسواها⁴⁵.

بادرت الكنيسة الكاثوليكية الغاضبة إلى إصدار قانون يحرم بعض مؤلفات أرسطو عام 1210م، وتلاه قانون تحريم مماثل في 1215م، وبالرغم من ذلك بقيت الرشدية متحصنة في كلية الآداب وكان من أشد أنصارها الرشدي الكبير سيجر دي بربان الذي دافع عن مبدأ السببية وشموله حتى المسيحية نفسها؛ وقد أدى ذلك إلى اتهامه وأصحابه بالرشدية المضلة، وإلى التخلص منهم بعد تنفيذ قانون التحريم عام 1277م. أما قضايا الاتهام الموجهة للرشديين، والتي اعتبرت معارضة للعقيدة المسيحية فكثيرة العدد، وإن لم تكن بالضرورة ممثلة لآراء ابن رشد⁴⁶.

لم يقتصر أثر ابن رشد في الغرب اللاتيني على القضايا الفلسفية واللاهوتية التي كان يدور حولها الجدل إبان القرن الثالث عشر في باريس وبادوا وبولونيا، بل تعداه إلى الميدان السياسي. حيث حمل لواء الرشدية في هذا المجال الشاعر الايطالي الشهير دانتي البغيري⁴⁷ الذي كان من أوائل رواد العلمانية السياسية في أوروبا في ظرف اتسم بالصراع بين أنصار البابوية وأنصار الإمبراطور. ومن نافلة القول أن شروح ابن رشد لأرسطو قد مهدت الطريق أمام انتشار الفكر العقلاني في المجتمعات الأوروبية رغم التحديات التي وضعها الفكر اللاهوتي، لتبلغ العقلانية أشدها في مطلع القرن السابع عشر، إذ يقرنها المؤرخون عادة باسم الفيلسوف وعالم الرياضيات رينيه ديكارت (المتوفي سنة 1650) الذي استحدث طريقة جديدة في البحث العلمي والفلسفي تستند إلى علم الرياضيات. في المقابل فإن الشرق الذي احتضن ميلاد ابن رشد ونشاطه العلمي قد عرف منذ أواخر القرن الثاني عشر اتجاها عكسيا نحو مناخات خائفة للفكر الحر الذي كانت بشرت به فرقة المعتزلة ومناهضة الفلسفة.

2.3 الشرق ما بعد الحروب الصليبية: سياسة الانطواء والانكفاء الحضاري

انكشف القناع عن واقع الشرق الجديد بعد انسحاب القوات الصليبية من أراضيه. لقد أنبأ واقعه عن ولوج العالم الإسلامي لمرحلة تاريخية مغايرة لما كان يعيشه ما قبل الفترة الصليبية. لقد فشل العرب في تحويل انتصارهم العسكري إلى دافع فعلي نحو المراكمة والبناء واستعادة الريادة العربية في المتوسط، بعد أن مر بمرحلة حرجة في تاريخه أبرز سماتها تعمق التفكك السياسي إبان الهجمات الإفرنجية والنكوس الحضاري والتشتت والتناحر، و"فقد شعب النبي محمد، السيطرة على مصيره"⁴⁸ على حد تعبير أمين معلوف. وغير خافية عن كل متابع لتداعيات الحروب الصليبية غلبة النتائج السلبية في المنطقة على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، ولأن تحليل جميع تلك المستويات غير ممكن في هذه الدراسة وقد سبقنا إلى ذلك عدد غير محدود من الباحثين، فإننا سنقتصر على الاهتمام بالنتائج الثقافية في مفهومها الواسع للحروب الصليبية.

كان للمواجهات الدامية أثناء الحروب الصليبية آثارها الغائرة في جسد الذهنية المشرقية ونظرتها وأشكال التمثل للحياة وللوجود رغم ما كان يعيشه الشرق من أوج حضاري. استغرقت الحروب مدة زمنية طويلة عايشتها أجيال متعاقبة كانت شاهدة على فضاغات شتى، من قتل وأسر وتدمير وحركات نزوح وتهجير دون توقف. لقد امتلأت النفوس بمشاعر الإحباط والعجز،

وشاعت روح من الخوف والتقوى السلبية والتدين العاطفي الهروبي⁴⁹. وتظهر جميع ذلك في انتشار فكر صوفي عامي كرس مستوى فكريًا بسيطًا يقرب إلى السذاجة، وانتشرت فرق الدراويش وأتباعها من المرددين للخرافات والأساطير وأبناء الصلحاء ومناقبهم على أنها حقائق تاريخية بآلة⁵⁰.

لقي هذا الصنف من التدين دعماً كبيراً من قبل الملوك الأيوبيين واستغلوه خدمة لأهدافهم في تأمين المدد البشري الضروري لجيوشهم، ولإذكاء حماسة القتال بين الجند ولمناهضة الفكر الشيوعي⁵¹. ولقيت تلك الطرق الصوفية وجماعات الدراويش التفافاً كبيراً حولها من قبل العامة ما عكس شيوع نزعة الإفلات من اليأس والهروب نحو المجهول وعدم الرضاء بالواقع. وفي ذات السياق شاعت جملة من التصرفات والممارسات غير المألوفة: كلبس الغريب من الثياب وانتشار حلقات الرقص والإنشاد وتناول المسكرات باسم الدين، وتفتشت ظاهرة الدعارة ودور القمار في أحياء المدن الكبرى وضواحيها. ولم يقتصر هذا التغير فقط على الشرق الإسلامي، بل امتد إلى مناطق أخرى منه بما فيها مجالات المغرب⁵².

ولم تكن حقول الإبداع الفكري والفنون بمنأى عن حالة التهافت التي عرفتتها المجتمعات الإسلامية، طالما أن كل مجهود الدول التي تداولت على الحكم في الشرق كانت مُنصبة لأجل تجهيز الجيوش وتمويل الحملات العسكرية واستخدام الطرق الصوفية للدفع نحو التعبئة العامة لأجل مقاومة الحملات الصليبية. لقد كان حكام مصر وبلاد الشام يواجهون عدواً مزدوجاً تمثل في الحضور الصليبي الوافد الذي قرر وعلى خلاف العادة ترسيم مستوطنات دائمة في المنطقة، وكان التحدي الثاني المد الشيوعي بعد نجاح العبيدين في تكوين دولتهم في مصر وفشلهم في التصدي للحملات الصليبية الأولى، وإبدائهم رغبة في التفاوض مع القوى الغازية لأجل اقتسام بلاد الشام. عمل الأيوبيون في مصر ثم المماليك من بعدهم على دعم الفكر السني وإبعاد دعاة الفكر الشيوعي ورجالاته، فأنشئت المدارس في كل من بيت المقدس ومدن الشام والقاهرة والإسكندرية لنشر الفكر السني وتقريب علمائه إلى البلاط. فباستثناء الغزالي لم يعرف الشرق ظهور مفكرين وعلماء مبدعين ومجددين كما كان في القرون الفارطة.

لقد اتجهت الحياة الفكرية بصفة عامة نحو الحفاظ على التراث الفكري والتجميع والتركيب، وتدوين الموسوعات والاهتمام بالمواضيع الفقهية والتفاسير والتأليف الاجتراري. كما ظهرت المعاجم الضخمة مثل "لسان العرب" لابن منظور و"القاموس المحيط" للفيروز البادي، وبعض الموسوعات والمؤلفات الشاملة مثل "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي و"نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري ما يعكس التمسك العربي للدفاع عن اللغة العربية خشية تسرب مفردات وافدة من اللغات الأوروبية أو آسيوية بعد مقدم الماغول واجتياحهم لمساحات ممتدة من العالم الإسلامي.

عكست تلك المرحلة جموداً فكرياً اعترى الحضارة العربية الإسلامية، فغاب العلماء والمفكرون المجددون، وأضحت الثقافة العالمية ثقافة جامدة عقيمة لا تقدم أجوبة تطفئ حيرة التساؤل عند الناس، ما مهد الطريق لظهور آداب وفنون موازية نابعة من تصورات الشعب وتمثالاته. لقد أضحت الآداب والفنون الشعبية المجالات المفضلة التي يث فيها المهمومون والمكروبون حيرتهم وآلامهم. ففي مجال الشعر ظهر ما عرف بشعر "النبويات" وهي قصائد مطولة كتبت في غرض الاستنجاد بالنبي والتوسل إليه لرفع المعاناة⁵³. واجتمع القصاصون في الساحات العامة والأسواق لقص حكايات وخرافات تعالج انكسارات الناس وتأخذهم إلى عوالم أخرى غير التي كانوا يعايشونها.

الخاتمة

المتأمل في العلاقة المتوترة في أغلب الأحيان والمتساكنة أحيانا بين الشرق والغرب في الفترة الوسيطة ومن بعدها، قد يلحظ قدرة الثقافات على خلخلة أجهزة الرقابة الدينية والمؤسسية والمقاومات المختلفة التي ميزت كل طرف في تعامله مع الآخر. لقد جاء الإسلام منذ البدء بوصفه صيغة تركيبية للديانات التوحيدية السابقة واعترف بها كجزء من الاعتقاد التوحيدي، وعلى الرغم من تمييزه بين "دار الإسلام" و"دار الكفر"، فإن الميل الإنساني للإسلام أملى على معتنقيه البحث عن اكتساب العلم، كل أصناف العلم، بدون حدود ولا حساب للتمايز الحضاري أو الديني. واضطرت أوروبا المسيحية بدورها إلى الاقتباس من العطاء العلمي والفلسفي والثقافي العربي الإسلامي، والأخذ بالأسباب التي كانت وراء ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الزمن الوسيط الأوروبي. رغم أنها شيدت أكبر نظام للصور النمطية المعادية للإسلام والمسلمين، وأقامت متخيلا جمعيًا في منتهى القسوة في أحكامه على التجربة الدينية والحضارية العربية الإسلامية. فما يمكن استنتاجه، هو أن "المتخيل قدرة فائقة على الانتقاء، وعلى الانسحاب مؤقتًا، ليترك للعقل إنجاز بعض مهامه الكبرى في اللحظات الانتقالية. بل إنَّ الأبعاد العدائية لمتخيل جمعي قد تكون وراء تحريك إرادة خاصة لامتلاك أسباب القوة، حتى لو جاءت من الخصم ذاته"⁵⁴. لقد جرب الطرفان المتصارعان كل الوسائل لفرض إرادتهما على الآخر، غير أنه في الوقت الذي كان فيه المسلمون ينظرون إلى الآخر بكثير من التعالي والشعور بالتفوق، انتقلت أوروبا اللاتينية من الاستبعاد التام للإسلام إلى الاهتمام بتعبيراته الدينية والعلمية والثقافية، ومن اعتباره عدواً إلى الانشغال بحضارته وأنماط تعامله مع مظاهر الحياة⁵⁵. فقد حلَّ التفاهم والإنصات محل الخشية، وانتقل العدو إلى مستوى المعلم الذي يستحق التقدير، وينظر إليه كأكثر العارفين بعلوم الإغريق والمعارف المصرية والموروث الصيني والفارسي.

طال مقام الآخر الإفرنجي في بلاد الشام إلى ما يناهز القرنين، فاختلط الغزاة بالسكان الأصليين ونشأ جيل على الأرض الفلسطينية والساحل الشامي متأثر بالحضارة العربية الإسلامية. فتحدثوا اللغة العربية، وارتدوا الألبسة المشرقية، وتذوقوا بذوق أهل البلاد مأكلاً ومشرباً وعادات وتقاليد. ولعل المائدة التي عرضت على أسامة بن منقذ لدى زيارته لصديق له في أنطاكية تعكس مدى تأثر الفرنجة بالذوق الشرقي من حيث أصناف المأكول وحتى طريقة نحر الأغنام⁵⁶. وأصبح هؤلاء بعد أجيال جزءاً هائلاً من سكان فلسطين والساحل الشامي، فحقت لديهم روح التعصب والبغضاء التي كانت لدى الأجداد الأوائل عندما قدموا إلى بلاد الشام، وأصبحوا أفضل وسيط لنقل التجارب والعلوم الشرقية نحو الغرب في سياق اتسم بالانحطاط التدريجي للحضارة الإسلامية، التي انحسرت إرادتها في المعرفة ما أدى إلى انغلاق في النظر، وخروج من التاريخ⁵⁷. لقد أثبت التفاعل بين الشرق والغرب في كل الأوقات والظروف وهن القول بالثقافات أو الهويات النقية بل يبقى مجرد وهم أو حلم لا وجود له إلا في أذهان المدافعين عنه. فالثقافة تتطور والهويات تتشكل تبعاً لحركة المجتمعات وتنقل الإنسان وتمازجه وتدافعه.

- 1 - قسّم الباحث مخلوف حميدة الصورة إلى ثلاثة أنماط وهي : الصورة المادية والصورة البلاغية والصورة الذهنية، لمزيد التعمق في المسألة يمكن العودة إلى مؤلفه،
. سلطة الصورة بحث في إيديولوجيا الصورة وصورة الايديولوجيا، دار سحر للنشر، تونس 2004.
- . دوبري ريجيس، حياة الصورة وموتها ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2002.
- . سعاد عالمي، مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري، إفريقيا الشرق، 2004.
- 2- العلوي (سعيد بنسعيد)، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، ص 12.
- 3 - أزيكو(علي صدقي)، تاريخ المغرب والتأويلات الممكنة، مركز طارق بن زياد، الرباط 2002. ص 10.
- 4 - وهي الصفة التي نسبها الأوروبيون خلال الفترة الوسيطة للمسلمين أو اتباع محمد، للمزيد يمكن العودة إلى :
Hervé Bleuchot, *Droit musulman*, tome I (*Histoires*), Presses universitaires d'Aix-Marseille, 2000, p. 39-49.
- 5 - ابراهيم(عبد الله)، المركزية الإسلامية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010، ص 11.
- 6 - مجوس هو لفظ يطلق على أتباع الديانة الزرادشتية والكلمة مأخوذة من كلمه مگوس من اللغة الفارسية القديمة.
- 7 - كانت الكنيسة الكاثوليكية تحرم تجارة المواد الغذائية والمواد التي تستخدم في الحروب مع المسلمين.
- 8-Michel Balard et autres, *collectif, migrations et diasporas méditerranéennes (X^{II}-X^{VII} siècles)*, Pierre Racine, "Une migration au temps des croisades: les voyages de pèlerinage", Éditions de la Sorbonne, Paris 2017, p 460.
- 9 - عطية(عزيز سوريال)، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1990. ص 28.
- 10 - نفسه، ص 30 .
- 11-Franco Cardini, "La société italienne et les croisades", Cahiers de Civilisation Médiévale, Janvier-mars 1985. (n°109), pp. 19-33, p 20.
- 12 - عطية(عزيز سوريال)، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، م س، ص 34.
- 13 - نفسه، ص 33.
- 14 - بدأ ظهور فرسان مالطة عام 1070 م، كهنة خيرية، أسسها بعض التجار الإيطاليين، لرعاية مرضى الحجاج المسيحيين، في مستشفى (قديس القديس يوحنا) قرب كنيسة القيامة ببيت المقدس، وظل هؤلاء يمارسون عملهم في ظل سيطرة الدولة الإسلامية، وقد أطلق عليهم اسم "فرسان المستشفى Hospitaliers" تمييزاً لهم عن هيئات الفرسان التي كانت موجودة في القدس آنذاك مثل "فرسان المعبد". للاستزادة يمكن العودة إلى: جوناثان رايلي سميث، الأسبترارية، فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص: 1050 - 1310، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، 1989.
- 15 - عاشور (سعيد)، الحركة الصليبية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الجزء الثاني. 1982، ص 1141.
- 16 - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، الكويت 1990، ص 13.
- 17 - نفسه ونفس الصفحة.
- 18 - كان العرب يفرقون بين مختلف الأعراق الأوروبية، ففي مؤلفاتهم نجد تسميات الصقليين والرومي والبلغار والفرنجة.
- 19 - نفسه، ص 10.
- 20 - نفسه، ص 31.

- 21 - تم تعيينه في منصب البابوية من سنة 1073 إلى 1085 ، عمل قريقوار السابع على ادخال جملة من الاصلاحات في الكنيسة وسميت فترته ب"الثورة القريقورية" وعمل على تقوية السلطة البابوية إلى أبعد الحدود.
- 22 - نفسه قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية**، م س ، ص 7.
- 23 - سيرت الكنيسة ويمساندة من ملوك أوروبا والأمراء وطبقة الفرسان الإقطاعيين ثمانية حملات عسكرية باتجاه المشرق، كانت واحدة ضد بيزنطا والبقية ضد مناطق مختلفة من العالم الاسلامي. ولأن المجال لا يسمح بالحديث عن تفاصيل تلك الحملات فإنه يمكن العودة إلى عديد المؤلفات التي تناولتها بالتفصيل ومنها:
- * الشامي(أحمد)، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، مصر، 1985.
- * قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية**، عالم المعرفة، الكويت 1990.
- * عطية(عزيز سوربال)، **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب**، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1990.
- 24 - أسسها بالدوين عام 1098 واستمرت حتى 1149، ضمت المدينة أقليات متنوعة منها المسلمين والمسيحيين والأرمن.
- 25 - أسسها القائد بوهيمند النورماني عام 1098 وبقيت إلى سنة 1268، سكنت المدينة أغلبية مسيحية مع أقليات من اليونانيين والأرمن والسريان والمسلمين.
- 26 - أسسها ريموند عام 1109 واستمرت حتى 1289.
- 27- أنشأت في بلاد الشام عام 1099 إلى 1291 بعد الحملة الصليبية الأولى، وشكلت أكبر ممالك الصليبيين في الشرق وقاعدة عملياتهم.
- 28 - الشامي(أحمد)، **تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، م س، ص 192.
- 29 - تحدثت المصادر العربية المعاصرة لوقائع الهجمات الصليبية عن الطابع العنيف الذي وجدناه عند كل من ابن القلانسي وابن الأثير وابن واصل وابن شداد والمقرئزي والقلقشندي وغيرهم.
- 30 - نفسه، ص 195.
- 31 - ولد في بلنسية سنة 540 هـ/ 1145 م، هو جغرافي ورحالة وكاتب وشاعر أندلسي عربي. انطلق سنة 1183 م في رحلة حج قام من خلالها بزيارة مناطق عديدة من الشرق الأوسط وقد دامت رحلته لستين قام بسرد أهم ما اعترضه في مدونة سميت ب" برحلة ابن جبير"، و أيضا باسم " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار "والذي كتبه حوالي 1186 م.
- 32 - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص 234.
- 33 - غوانمة (يوسف حسن)، " التسامح الإسلامي في مواجهة الآخر الفرنجي في بلاد الشام في العصر الأيوبي"، ضمن مؤلف جماعي: **بلاد الإسلام في مواجهة العوالم الخارجية**، منشورات، Ifpo، دمشق 2014. ص 231.
- 34 - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، م س، ص 235.
- 35 - غوانمة (يوسف حسن)، " التسامح الإسلامي في مواجهة الآخر الإفرنجي في بلاد الشام في العصر الأيوبي"، م س، ص 235.
- 36 - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، م س، ص 235.
- 37 - غوانمة (يوسف حسن)، " التسامح الإسلامي في مواجهة الآخر الإفرنجي في بلاد الشام في العصر الأيوبي"، م س، ص 236.
- 38 - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، م س، ص 249.
- 39 - . أفاية (محمد نور الدين)، **الغرب المتخيل**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000، ص 237.
- 40 - ولد محمد بن أحمد بن رشد، عام سنة 1126م في قرطبة، التي كان جده كما كان والده قاضياً فيها؛ وقد أتاحت له البيئة العلمية التي نشأ وترعرع فيها التمكن من كلتا العلوم الشرعية والعقلية في سن مبكرة من حياته. يبلغ عدد مصنفات ابن رشد أكثر من ستين كتاباً ومقالة، تتوزع في أربعة مجالات معرفية: علوم الفلسفة، وأكثرها تلخيصات وشروح لمؤلفات أرسطو؛ والطب، وأكثرها تلخيصات لكتب جالينوس؛ والفقه، وأكثرها من تأليف ابن رشد نفسه؛ واللغة، وتآلف من كتابين في النحو والصرف.

- 41 - تطلق العقلانية علي أي فكر يحتكم الي الاستنتاج أو المنطق ويتخذ من العقل والاستنباط معيارا للحقيقة بدلا من المعايير الحسية. للاستزادة يمكن العودة إلى : كتاب مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ترجمة محمود محمد الخضير، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1968.
- الجابري (محمد عابد) ، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط2، 1982 .
- بنعيد العالي (عبد السلام) وسالم يفوت، درس الايستيمولوجيا ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 2001.
- 42 - الخضير (زينب محمود)، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص 9.
- 43 - ولد تقريبا سنة 1235 م، درس بجامعة باريس، عُرف بأرسطيته الخالصة وجرائته التي لم تكن تبالي باللاهوت، توفي منفيًا في دير بمدينة أورفيتو Orvieto سنة 1284.
- 44 - ولد سنة 1225 في جنوب إيطاليا ودرس في جامعة نابولي ثم بجامعة باريس، أين دُرّس فيها بعد استكمالها لدراساته الفلسفية، توفي سنة 1274.
- 45 - الخضير (زينب محمود)، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، م س، ص 14.
- 46 - حمد(علي خليل)، "ابن رشد فيلسوف التنوير"، مجلة منبر ابن رشد، العدد 17، صيف 2015، الموقع الإلكتروني <https://www.ibn-rushd.org>
- 47 - دانتي أليغييري Dante Alighieri ، ولد في فلورنسا سنة 1265 وتوفي سنة 1321. ويعرف عادة باسم دانتي من أعظم أعماله: الكوميديا الإلهية المكونة من ثلاثة أقسام: الجحيم والمطهر والفردوس. يعتبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجته أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة. فهي واحدة من الأعمال الرئيسية لعملية الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الفكر.
- 48 - Maalouf(A), *Les croisades vues par les Arabes*, Ed J.C Lattes, Paris. 1983. P299.
- 49 - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م س، ص 171.
- 50 - نفسه ونفس الصفحة.
- 51 - نفسه، ص 172.
- 52 - للاستزادة حول انتشار الفكر الصوفي والتدين الشعبي في مجالات المغارب يمكن العودة إلى مؤلف لطفي عيسى، مغرب المتصوفة، مركز النشر الجامعي، تونس 2005.
- 53 - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م س، ص 186.
- 54 - أفاية (محمد نور الدين)، الغرب المتخيل، م س، ص 246.
- 55 - نفسه، ص 244.
- 56 - ابن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، طبعة الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1981. ص 180.
- 57 - أفاية (محمد نور الدين)، الغرب المتخيل، م س، ص 252.

بيبلوغرافيا

* المصادر:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، 1966.
- الإصفهاني، الفتح القدسي، الدار القومية للطباعة والنشر، دون تاريخ
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981.
- ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1964.
- ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 1962.

- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908.
- ابن منقذ، كتاب الاعتبار، طبعة برنستون، 1930
- ابن النديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، طبعة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 1954.
- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، دار الكتب المصرية، 1972.
- المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1934.

* المراجع باللغة العربية

- ابراهيم (عبد الله)، المركزية الإسلامية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2010.
- أزيكو(علي صدقي)، تاريخ المغرب والتأويلات الممكنة، مركز طارق بن زياد، الرباط 2002.
- أشثوري، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبله، دمشق، دار قتيبة 1985.
- أفاية (محمد نور الدين)، الغرب المتخيل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000.
- بنعيد العالي (عبد السلام) وسالم يفوت، درس الابيستيمولوجيا ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب، 2001 .
- الجابري (محمد عابد) ، تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان 1982 .
- جوناثان رايلي سميث، الأسبثارية، فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص: 1050 – 1310، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق، 1989.
- الخضير (زينب محمود)، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983.
- سعاد عالمي، مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري، إفريقيا الشرق، 2004
- الشامي(أحمد)، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، مصر، 1985.
- العلوي (سعيد بنسعيد)، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995.
- عطية (عزيز سوريال)، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1990.
- عاشور (سعيد)، الحركة الصليبية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الجزء الثاني. 1982.
- غوانمة (يوسف حسن) ، التاريخ السياسي لشرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، ط2، عمان، الأردن، دار الفكر. 1982.
- ، "التسامح الإسلامي في مواجهة الآخر الفرنسي في بلاد الشام في العصر الأيوبي"، ضمن مؤلف جماعي: بلاد الإسلام في مواجهة العوالم الخارجية، منشورات، l'Ifpo، دمشق 2014
- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، الكويت 1990.

* المراجع باللغة الفرنسية:

- Balard(M) et autres, *collectif, migrations et diasporas méditerranéennes (X^E-XVI^E siècles)*, Pierre Racine, "Une migration au temps des croisades: les voyages de pèlerinage", Éditions de la Sorbonne, Paris 2017.
- Bleuchot(H), *Droit musulman*, tome I (*Histoires*), Presses universitaires d'Aix-Marseille, 2000.
- Cardini(F), "La société italienne et les croisades", *Cahiers de Civilisation Médiévale*, Janvier-mars 1985. (n°109), pp. 19-33
- Dupront(A), *Du sacré. Croisades et pèlerinages. Images et langages*, Paris, 1987.
- Eddé (Anne-Marie), *Saladin*, Paris, Flammarion, 2008.
- Grousset(R), *Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem*, Paris, Éditions Perrin, 2006, 3 vol.
- Maalouf(A), *Les croisades vues par les Arabes*, Ed J.C Lattes, Paris. 1983.
- René Grousset, *L'Épopée des croisades*, Paris, Éditions Perrin, 1995.
- Sigal, *Les marcheurs de Dieu. Pèlerinages et pèlerins au Moyen Âge*, Paris, 1974